ذكريات شموع الروضة (7)

ذكرياتي مع محمد

العبدالله الراشد وأبيه رحمهما الله

صغيّر بن محمد الصغيّر

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذكريات شموع الروضة (٧)

ذكرياتي مع محمد العبدالله الراشد وأبيه رحمهما الله.

جودي علي بأدمعٍ يا مقلتي ****** فالموت حال بيني وبين أحبتي.

إن تسكبي الدمع الكثير فإنه ****** يشفي وإن الدمع زاد بحسرتي.

ولقد ذكرت الذكريات وما مضى ****** مع ابن عمٍ كان أقرب إخوتي.

جاد الكريم ابن الكرام محمد ****** في فضله ما زاد لي في بهجتي.

ولقد خشيت الموت يأخذ غالياً ****** من بعدكم أفلت وزالت خشيتي.

ثم انقضت تلك السنون و أهلها ****** ذهبوا فسالت دمعتي مع دمعتي.

أدعو لنفسك أن يقول تفضلاً ****** يوم الحساب أن ادخلي في جنتي.

****** ****** ****** ****** ****** ****** ****** ****** ******

حقاً صدق القائل : اترك أثراً وسيبقى أجره إلى يوم الدين!

في حياة كلٍّ منا أشخاصٌ يتركون بصماتهم في أرواحنا، يمرّون كنسمات عابرة، وحين يأتي الفقد، يأتي كعاصفةٍ تقتلع القلب من مكانه، لا نصدق في البداية، نحاول أن ننكر، أن نبحث عن أصواتهم في زوايا الأماكن التي اعتدنا أن نلتقي بهم فيها، أن ننتظر اتصالاتهم و رسائلهم التي لن تأتي، لكن الحقيقة تفرض نفسها في النهاية: غابوا ولن يعودوا.

ربما يغيب الجسد، لكن السيرة العطرة التي تسكننا لا ترحل أبدًا.

تبقى لحظاتنا التي عشناها معهم، في كلماتهم التي ما زالت تتردد في أذهاننا، في الأماكن التي جمعتنا، في لحظات الصمت التي نملؤها بذكراهم.

لابد أن ندرك أن الحبّ الذي نعطيه للآخرين هو الأثر الحقيقي الذي سيبقى بعدنا، فلنحبّ بصدق، ولنعبر عن مشاعرنا دون تأجيل، فقد يأتي الغياب فجأة، وحينها لن يبقى لنا سوى الذكريات، ... بدأت القصة في سحر ليلة الخامس والعشرين من رمضان عام ألف وأربع مائة وست وأربعين للهجرة وبعد صلاة القيام في روضة جامعنا المبارك ..قرأت رسالة من ابن العم عثمان بن خالد بن عثمان الصغير وقد أرفق ملفاً بتواريخ وفيات رجالات العائلة طالبًا الدعاء لهم .. فتحت الملف وقعت عيني على ابن عم صديقٍ لي بمنزلة الأخ الشقيق أو أشد يكبرني سناً وفضلاً ، ومع ذلك من تواضعه لم أشعر يوما بذلك ..

إنه أخي الأكبر محمد بن عبدالله الراشد الصغيّر .. منذ وعيت مجالس الوالد رحمة الله عليه وأنا أعرفه ، كان واصلاً للرحم، يحضر مع أبيه الشيخ عبدالله رحمة الله عليهما.

الشيخ الوالد عبدالله الراشد لايمكن أن تمل مجلسه ، عندما تراه وتسمعه تنتقل مباشرة إلى جيلٍ سابق من أئمة الدعوة الذين نشأوا على نهج السلف الصالح، وامتثلوا كتاب التوحيد في حياتهم .

لازلت كأني أستمع لقصص رحلاته للأحساء والعراق والهند، وقصص دعوته في الديار التي كان يمر بها ، وبعض الكرامات التي كان يتحدث بها، ومنها: أنه دار بينه وبين مجموعة من أهل البدع في بادية البصرة قديمًا نقاش حاد، ولما أفحمهم بالحجة اجتمع عليه قوم كثر من قبيلة واحدة ، فأجمعوا على قتله، فانبرى رجل من المجلس بسلاحه، يقول : لا أعلم كيف قفز وأخرج سلاحه ، وقال : إن تعرضتوا لهذا الرجل فلاتلوموا إلا أنفسكم ، يقول: فكافاني الله شر القوم ، ثم شكرت الرجل الذي كف عني آذاهم ، وقال: أنا من القبيلة الفلانية وعلى مذهبهم لكني شعرت أنك على حق !

الشيخ عبدالله -رحمه الله -كان مهتما بتاريخ الجزيرة وخاصة الدولة السعودية، وعالماً بالأنساب ، وكان أخي سليمان -رحمه الله- يصحبني إليه ليسأله ويراجعه في بعض الحوادث التاريخية وبعض الأنساب ، ونلقاه في مسجده فإذا كان الحديث لأمر دنيوي أمرنا نخرج من المسجد معه للبيت احتراماً للمسجد .

وقد حصلت له قصة في آخر حياته تبين شدة توكله -رحمه الله- وصدق إيمانه ، حيث ركب طائرة هندية مع **ابنه محمد**، ثم حصلت لهم مطبات جوية قوية، فصاح الركاب، وانتابهم هلع شديد، فقام خطيبًا ،وتشهد ودعاهم للموت على التوحيد بثبات ورباطة جأش، ثم استمر يدعو .. يقول ابنه –رحمه الله- : فتعجبت لثباته رحمه الله ..

الشيخ عبدالله- رحمه الله- كان أغلب وقته في المسجد، وعندما قرب أجله -رحمه الله- رأى رؤيا فمكث يومه كعادته في المسجد، فلما طلعت الشمس صلى صلاة الضحى، ثم ذهب لمنزله، وطلب ابنه وزوجته وقال لهما أحدنا سيموت، ولكن اصبروا واحتسبوا ، ثم استلقى على جنبه تجاه القبلة وتشهد وخرجت روحه -رحمه الله-، وكان ذلك في **ذي القعدة عام ألف وأربع مائة وأحد عشر للهجرة رحمه الله رحمة واسعة عن عمر يناهز خمسة وثمانين ونيف.**

وأمّا ابنه الوحيد محمد -رحمه الله- فلا أعرف كيف أبدأ الحديث عنه؟ هل أبدأ بكفاحه واجتهاده في التربية و التعليم؟ أم بنقاء وصفاء قلبه، أم بحسن خلقه وعفته، أم بصبره واحتسابه لما ابتلي ! أم بصلته لرحمه وبره العجيب بوالديه وتواضعه، أم بكرمه وإنفاقه للمحتاجين، أم بحسن تربيته لأسرته..

ففي التعليم مكث أربعين عامًا يدرس الصفوف الأولية ، وخرّج أجيالًا من الطلاب، وقد قابلت أحد المفتين في بعض القنوات، وذكر لي: أن من علمه القراءة والكتابة هو **المعلم محمد أبوعبدالله**، .. فقلت: لله هو .. أجور عظيمة تلك الاثار، وصدق الله : **﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)﴾ [سورة يس: الآية : ١٢] هذا مفت واحد فما بالك بأجيال، فاللهم لاتحرمنا وإياه أجر التعليم** ..

وقد ربطتني مع محمد أبي عبدالله صداقة طويلة، فكان يزورني ويتصل بي أسبوعيا تقريبا، إلى أن أقعده المرض.

ووالله خلال جلساتي الطويلة واتصالاتي معه لم أعهد منه غيبة لأحد أو سب أو شتم صراحةً أو تلميحًا، بل كان كثير الدعاء والحمد والثناء على الله ..

ولقد مرت به عواصف رأيت جلدًا وصبرًا منه عجيبًا، لايؤتاه إلا من وهبه الله صلاحًا وإيمانًا، نحسبه والله حسيبه ، ورأيت منه إنفاقًا لمشاريع خيرية لم أرها من أصحاب ثراء فاحش، ومشاريع وقفية لأموات تولاها أبوه ثم هو -رحمه الله-.

وكان وقافا عند حدود الله، كثير السؤال عن الأحكام الشرعية، شديد الامتثال، وكان سريع الدمعة ، شديد الخشية ، عندما تذكر الموت أو الجنة والنار تسيل عيناه، وكأن بينه وبين الخشية عهدًا لا ينقض، لم يكن قلبه إلا صفحةً بيضاء، لا يحمل غلًا ولا حقدًا، مخمومًا كأنه لم يُخلق إلا للصفاء، وسليم الصدر لا يعرف للحقد طريقًا، يبيت وقلبه نقي، ويصبح وليس في نفسه على أحد شيء، فمن عرفه أحبه، ومن جالسه وجد في روحه سكينةً تفيض على من حوله.

ومما تعلمت منه رحمه الله شدة الوفاء لأصدقائه، وأصدقاء أبيه وصلته لهم ، وقد فجعت بوفاته **في الزلفي -رحمه الله- في يوم الثلاثاء في الرابع من شهر ربيع عام ألف وأربع مائة وخمسة وأربعين للهجرة ، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين فيما أعلم.**

اللهم اغفر لمحمد ووالده، ووالدينا، وجميع أقاربنا وأحبابنا، الأحياء منهم والأموات. اللهم اجعل قبور من رحل منهم روضةً من رياض الجنة، ونوّرها بنور وجهك الكريم، واغفر لهم مغفرةً تامةً لا تبقي ذنبًا، وأدخلهم برحمتك في جنات النعيم.

اللهم ارزق الأحياء منهم الصحة والعافية، وطهر قلوبهم، وسدد خطاهم، وأكرمهم في الدنيا والآخرة، ووفقهم لما تحب وترضى. اللهم

اجعلنا وإياهم من عتقائك من النار، وأظلّنا بظلك يوم لا ظل إلا ظلك، واجمعنا جميعًا في فردوسك الأعلى .

اللهم ارحم ضعفنا، وتجاوز عن تقصيرنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأحسن خاتمتنا، واجمعنا بأحبابنا في مستقر رحمتك. اللهم آمين.

كتبه : صغير بن محمد بن فالح الصغير ٢٥-٩-١٤٤٦هـ.